٥١ العز بن عبد السلام
سلطان العلماء

للحياة الفاضلة مقومات وسمات، قيم ومبادئ، أهداف ومثل.. فيها تكون سلامة النفس والحس، وسعة العقل والعلم، واستقامة التصرف والعمل، وقوة العقيدة واليقين.

هذه المعانى أو أكثرها كان يتحلى بها الرجل الصالح، والإمام المجتهد، سلطان العلماء العز عبد العزيز بن عبد السلام.. رجل العروبة والإسلام وبطل دمشق والقاهرة.

ولد هذا الإمام العظيم سنة سبع وسبعين وخمسمائة فى دمشق أو الشام كما يطلق عليها أحياناً، ونشأ بين ربوعها وأهلها وتعلم على أيدى علمائها وفقهائها، فحفظ القرآن الكريم، وأتقن الحديث وأدرك تفسيرهما، وجال فى العلوم الشرعية، فعرف الكثير من مخبوئها وكنوز تصلح زاداً للحياة الإجتماعية وقتئذ. وتحوَّل إلى مهنة التدريس ثم الفتوى. وظل فى مسقط رأسه دمشق حتى رحل عنها إلى القاهرة ـ كما سنرى ـ ليتوفى بها عام ستين وستمائة للهجرة.

كان الإمام العز منذ فجر شبابه قوىَّ الشخصية، عميق الإيمان، موصول العمل، موفور النشاط.. زاهداً، وَرِعًا، تقيًا شديد الغيره على دينه وتعاليم ربه، صادقَ الكلمة فى مواطن النصح والتوجيه، شديدَ المراس فى مواقف الحق والصراحة ليناً فى مواطن الرقة والتواضع، حتى صدقت عليه كلمة فيلسوف الإسلام ابن الهند وباكستان محمد إقبال، حيث قال عنه: «إنه ناعم كالحرير إذا كان

فى حلقة إخوانه ومريديه وتلاميذه، وهو كالفولاذ إذا دارت المعركة بين الحق والباطل. . . ».

ولقد عاش الإمام العز فى فترة عصيبة من تاريخ المسلمين، تعرضوا فيها لبلاء أطبق عليهم من كل جانب، لأن البعض منهم قد تهاون فى أمر دينه، والبعض الآخر عمل فى تفريق شملهم، حتى أصبحوا شعوباً وأمماً، شيعاً وأحزاباً، بعد أن كانوا أُمَّة واحدة تجمعها كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فكانوا خير أمة أخرجت للناس. أما وقد صارحالهم على هذا المنوال، فقد سُلِّط عليهم من الغرب عدو يضمر الحقد الكظيم على العروبة والإسلام، وهو ما يمثله الصليبيون، ومن الشرق عدو لا يرحم ولا تعرف الرحمة طريقاً إلى قلبه متمثلا فى التتار. هذا إلى جانب عدد يعيش بين ظهرانيهم تواطأ مع هؤلاء وهؤلاء، فباع الوطن والعقيدة والنفس.

كان الإمام العز كلما تجددت لأولئك الغزاة محاولة أو هجمة على بلاد الإسلام والعروبة ثار، وأخذ يحرض الجموع المؤمنة ويذكرهم بمجد هذا الدين الحنيف وإعلاء كلمته. . ويحثهم على المبادرة إلى الجهاد والنضال. . وكانت له فى ذلك مواقف مشهودة.

لقد حدث أن سيطر على دمشق ـ أثناء تواجده بها ـ أمير متخاذل، يُدعى إسماعيل بن العادل، اختار الضعف أسلوباً لحياته، والذلة منهجاً لحكمه، والتآمر وسيلة يحقق بها أطماع نفسه ـ كان هذا الأمير المتخاذل الضعيف المتآمر يتولى أمر دمشق من قبل السلطان نجم الدين أيوب، الذى كان يواجه هجمات الإفرنج فى ذلك الوقت، وكان من الطبيعى أن يتعاون هذا الأمير مع هذا السلطان على رد هؤلاء الغزاة، إلا أنه ما حدث من هذا الأمير كان غير ذلك، فنراه يتواطأ مع الإفرنج ضد نجم الدين حين ينجو بحياته، وليكون الصديق الوفى الفائز بالنصيب الأكبر يوم توزيع الغنائم، بل وصَلَ الأمر من هذ الأمير أن أباح للإفرنج شراء السلاح والمؤن من دمشق، سلاحاً يُوَجَّهُ إلى قلب إخوة فى الإسلام والعروبة!؟

عندئذ ثار الإمام العز وغضب، ولم يخشى البطش والجبروت ولم يخفه، وكان

خطيباً لجامع دمشق حينئذ، فكانت كل خطبة له يندد فيها بالخيانة وينادى بحرمة التعاون مع الإفرنج فى أى شئ مادام المسلمون فى حالة حرب وقتال معهم.

لقد أعلن الإمام العز من فوق المنبر قائلا: «اللهم أَبْرِمْ لهذه الأمة إبرامَ رشد، يعز فيه أولياؤك، ويذل فيه أعداؤك، ويُعْمَلُ فيه بطاعتك وينهى فيه عن معصيتك وغضبك..».

ولم يكتف بذلك، وإنما قام يطوف بين الناس يمنعهم من التعامل مع الأعداء، ومَن يساندهم.. مهما كانت حاجتهم.. مردداً على مسامعهم: «يحرم عليكم مبايعتهم إذا كنتم تتحققون أنهم إنما يشترون السلاح ليقاتلوا به إخوانكم المسلمين..».

وتتوالى الأيام والإمام العز بن عبد السلام يزداد تألقاً وسطوعاً حتى وإن كابد العزل والنفى والتشريد.. ويزداد قرباً من الناس وبُعْداً عن حكامهم من المتخاذلين والخونة. ويزداد تمسكاً بما ينادى به من إعلاء كلمه الحق والدين. فيزداد اضطهاد الحكام له، ويتضاعف كلما رأوه يثابر على أداء رسالته. حتى رأينا معانى البطولة التى تجلت فيه شاباً فتياً، لم تتركه كهلا ولا شيخاً، بل صاحبته بقية عمره الذى زاد على الثمانين عاماً حتى وإن وهن جسده على مر هذه السنين، فإن همته ظلت كما هى قوية فتية.

فها هو ذا فى شيخوخته يشن حملة شعواء على الملوك والسلاطين المتزمتين، حين يرى حاكماً مترفاً فى يوم عيد يُسرف فى تعاليه وتجمله وأبهته، ويخرج بين عسكره ووجهاء قومه فى زينته.. ليقبل الناس الأرض بين يديه... هنا يغضب الإمام العز، ويتعمد أن ينادى هذا الحاكم باسمه مجرداً، وينصحه بأن يصلح المفاسد الموجودة فى جهاز حكمه؛ فيرد عليه الحاكم معتذراً: «هذا ما عملته، هذا من زمان أبى». فيقول له العز معرضا: «أأنت من الذين يقولون: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾[1]».

وينتهى هذا الموقف العاصف بين الحاكم والإمام ليقول له أحد تلاميذه: «لمَ فعلت هذا مع الحاكم» فيرد الإمام العز قائلا: «رأيته يا بنى فى تلك العظمة،

(١) استشهاد من القرآن الكريم من سورة الزخرف ـ من الآية ٢٣.

فأردت أن أهينه لئلا تكبر نفسه فتؤذيه». فقال التلميذ: «أمَا خِفْتَه يا إمامنا؟» وأجاب الإمام العز: «والله يا بنى لقد استحضرت هيبة الله عز وجل يوم اللقاء.. فصار هذا الحاكم أمامى كالقط..».

وكان الإمام العز بن عبد السلام.. رجلا يقدس الحق ويخضع له، ويسارع بالعودة إليه إذا تبين له خطأ فيه أو انحراف عنه، وتلك سمة من سمات أخلاق العلماء فى كل عصر وفى كل مكان. الموضوعية فى محاسبة الرأى حتى ولو كان هذا الرأى له، والرجوع عنه إذا وجده بجانب الحقيقة، فلا شئ يهم العالم فى أى مجال من المجالات سوى الحقيقة وتوضحيها للناس. وكلما اقترب العالم من الحقيقة ازداد موضوعية، وبالتالى ازداد احترام الناس له.

وهكذا كان إمامنا العز بن عبد السلام.. لقد حدث أنه أفتى ذات مرة بأمرٍ من الأمور، ولعله اجتهد فى ذلك وأخلص وراَعَى أمر ربه كعادته دائماً فيما أفتى، وعلى الرغم من هذا فقد ظهر له خطأ فى رأيه، وهنا لم يُكابر أو يعاند، ولم يتردد أو يتراجع فى إعلان الحقيقة ولو كانت تسبب له - كشيخ للإسلام - حرجاً، بل على العكس أخذ ينادى بين الناس على نفسه قائلا: «مَنْ أفتى له العز بن عبد السلام بكذا وكذا، فلا يعمل به، فإنه أخطأ.. والله على ما أقول عليم وشهيد..».

هذا الطراز من العلماء الذى يعامل نفسه بموضوعية كما يعامل غيره من الناس، لابد أن يكون بين الناس ذا هيبة ووقار. هذا إلى جانب أن إيمانه العميق، وعلمه الواسع قد أشاعا على ملامحه سمتاً يرغم الآخرين خشيته وإجلاله. لقد كان يقيم فى دار اختارها لنفسه خارج القاهرة مع أهله، وذات ليلة جاء إليه نائب السلطان، وكان من أمراء المماليك، مصحوباً بجماعة مثله من الأمراء وكبار رجال الدولة والجند، يريدون الاعتداء عليه، والبطش به فى هدأة الليل، إلى درجة أن هذا المملوك الكبير جاءه شاهراً سيفه ومن خلفه أتباعه ورجاله وجنده، فاعلين ما فعله قائدهم، حتى يمعنوا فى تخويفه، وكسر شكيمته.

ترى ماذا يكون تصرف رجل أعزل مُسِن يعيش فى الخلاء؟ لقد أقبل عليهم فى ثبات ورباطة جأش، وقال لهم بصوت عميق قوى مؤثر: «أهلاً بضيوفنا!». عندئذ

انبهر المماليك وكبيرهم بقوة شخصية هذا الإمام، وسطوع روحه، ويبست أيديهم على سيوفهم وتجمدت، ولم يجدوا ما يفعلونه إزاء هذا الموقف غير المتوقع إلا أن يطلبوا منه العفو والدعوات.

ولعل ظروف وفاته تشير إلى ما كان عليه من إخلاص وأمانة، وعلم وعمل، وجهاد وكفاح، وتقوى وصلاح.. لقد انتهت حياته أثناء إلقاء درسه بين تلاميذه ومريديه أثناء تفسيره لقول الحق﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1].

وفى وداعه إلى مثواه الأخير خرجت مصر كلها تشيعه، فخرج الرجال والنساء والأطفال، وأمر السلطان ـ الذى كان قد أفتى بعدم صلاحيته لأنه مملوك ـ أن يحمل الأمراء نعش هذا الشيخ العظيم. بل اشترك معهم فى ذلك.. تقديراً لعلمه وصدقه وتقواه.

وفى مسقط رأسه دمشق وما يجاورها من المدن أقيمت له جنازة ضخمة، وصلوا عليه صلاة الغائب.

واستقر جثمان هذا الإمام العظيم فى مثواه الأخير تحت سفح المقطم وعاد السلطان بيبرس إلى قصر ملكه يتنفس الصعداء ويقول: «الآن قد استقر أمرى فى الملك، لأن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا.. لخرجوا علىّ وانتزعوا الملك منى.. لقد كان الإمام العز بن عبد السلام سلطاناً فوق السلاطين.. وكان حقاً وصدقاً سلطان العلماء.

* * *

---

(١) سورة النور ـ من الآية ٣٥.